صور من القاهرة المجهولة

على أنجاد أبي السعود

للأستاذ محمد عبد الكريم

. . . عتريس أو المعلم عتريس عامل من عمال المدابغ الذين أفنوا شبابهم فى شغل شاق. حتى إذا أضنى الوحل والماء الآسن سيقانه، وأوشك فساد الهواء أن يأكل صدره وأجفانه تخلى عن العمل أو تخلى العمل عنه . وقبع فى مقهى بحى فم الخليج يلتمس رغيف الخبز من بيع يتوسط فيه أو من دلالة مسترشد عن شىء يبتغيه . وهو محدث لبق . يحدثك على جهله حديث العارف الحكيم . وقد وسع رأسه من مختلف العلوم والفنون مالم يجتمع لسواه . ينظم الشعر ويرويه . . . وينشئ الخطاب الجامع ويلقيه . . لا بل يؤلف تاريخ من وحى خياله . . . ويحكيه . . . ! !

عرفته إذ تطوع لمرافقتى وإرشادى فى جولة لى بتلال زينهم . وأبيت من يومها أن أتخلى عن صحبته فى جولاتى بأطراف البلد . وإذا كان فى كشف خفايا القاهرة وحباياها مشقة أو صعاب فالفضل فى تذليلها راجع لصحبة عتريس . . .

بين المصانع : بدأنا السير من فم الخليج بجوار سور العيون الأثرى قاصدين حى أبى السعود ، وقد رميت بزيارة هذه المنطقة الى غايتين : الأولى دراسة حال عمال الصباغ بعد أن جلوت أمر عمال المدابغ فى مقال سابق ، والثانية الوقوف على ما فى إقامة المصانع بتلك الجهة من أثر فى صحة الأهلين ، وعرض أسباب علاج تلك الحال .

واتخذنا سبيلنا إلى التل حتى بلغنا منطقة المصانع ، هذا مصنع لفحم الحيوانى تملكه شركة أجنبية تعنى بجمع العظام من المذابح وغيره وتبعث بها إلى معامل شركة السكر للاستفادة منها فى عملية التكرير ، تجاوره مخازن شركة الأمعاء ومخازن الخرق البالية ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذه المخازن فى مقال سابق ، و يقابل مصنع الفحم معمل كيميائى لشركة الأنجلو اجبشيان لتوريد وقد اختص بجمع الدماء من المذبح وتجفيفها واستخراج مادة الألبومين Olbomine الهامة فى عملية تكرير السكر ، كذلك ترد على هذا المعمل جميع الأسماك التى تتعفن بالأسواق ليجففها و يستخرج منها المادة الكيميائية المعروفة بجوانو Guano و يحيل بقايا ما ينتج سمادا عضو يا نافعا يبيع الطن الواحد منه بثمانية عشر جنيها إذا كان من بقايا الدم وعشرة جنيهات لبقايا الأسماك .

و بالمعمل عمال قليلون بعضهم من الرجال والبعض من النساء والبنات و يتراوح أجر الرجل فى اليوم بين ستة وتسعة قروش وأجر المرأة بين ثلاثة وأربعة قروش .

لم أطق البقاء فى مخزن هذه الشركة، حيث الدماء والأسماك المتعفنة، فقد ضاق صدرى واحتبست أنفاسى وخرجت أسائل نفسى : إذا كان هذا حال ما عسى أن يفعل أولئك المساكين من رجال ونساء وأطفال ، أولئك الذين يقضون العمر فى هذا الجو الفاسد الخانق لقاء أجر لا يفى بما يسد الأود أو يستر الجسد ؟

فإذا تركت هؤلاء ورجعت البصر إلى الذين استخدموهم ، إلى أولئك الأجانب الذين لم يدعوا شيئا مهما حقر وضؤل دون أن يستفيدوا و يفيدوا منه، أكبرت فى القوم عزمهم، وحييت فيهم نشاطهم، وتساءلت أين نحن من هؤلاء وأين أبناؤنا الذين درسوا الكيمياء من خريجى كليتى العلوم والزراعة، ولم لا يعنون بمثل هذه الأعمال . وإذا كان الأجانب قد سبقونا إلى مذبح العاصمة فأفادوا من كل ما يتخلف من نفاياته و بقاياه بل من أتربة التلال خلقوا صناعة رابحة فحرى بالإخصائيين من أبنائنا أن يجاروهم ما استطاعوا على أنى إذ ألوم الشباب أعتب كذلك على أولئك الأغنياء من رجالنا الذين قبروا أموالهم بين جدران الخزائن فحرموا أنفسهم كسبا وفيرا وأساءوا إلى أبناء وطنهم وقصروا عليهم بالبطالة بعد أن بذل هؤلاء فى سبيل العلم كل ما يملكون من جهد، وأنفق الآباء من أجلهم كل ما وصل الى أيديهم من مال.

فى مصنع السماد : اليوم الثلاثاء، يوم زيارة أبى السعود، و لنسوة يملأن المكان، وقد اكتظت الساحة على سعتها بالناس ، وكأنى بهم يحتفلون بمولد ولى ، أو يسعون إلى وليمة غنى .

هذا هو " الحاوى " ينفخ فى البوق ، وذاك " أدباتى " يضرب الدف و يلقى المواعظ منظومة ومنثورة، وذاك " قرداتى " جمع الناس حوله ، وفى جوار هذا الحفل الضاحك اللاهى يقوم فريق من العمال بعمل من أشق الأعمال ، عمل يحترق له القلب ويخبو له نور العين ، هؤلاء هم عمال السماد الذين يعملون فى نقل المواد البرازية و يتولون خلطها بالأتربة لتصير سمادا نافعا .

صعدنا إلى التل حيث يقوم المصنع ، حتى إذا بلغنا بابه استوقفنى مشهد حصان ملقى على الأرض فمضيت أتأمله و إذا بفترس يصيح من ورائى " جرى إيه يا افندى ... حصان ميت قدامك .. حا تتبلى عليه ... والا واقف تقرا الفاتحه على روحه ! ! " وقد أحضر هذا الحصان إلى المصنع لتقطيعه وصهر لحمه والانتفاع به كسماد عضوى .

ذلك بأن المصنع يقوم على عملين : الأول نقل الأتربة من الجبل وخلطها بالمواد العضوية التى يؤتى بها من مخلفات المذابح وما تحمله عربات الكسح من مجارى المنازل

التى لم توصل بعد بالمجارى العامة ، والثانى إعداد مواد عضوية إضافية وخلطها بالأتربة لإكساب السماد قوة وقيمة ، وقد عمد المصنع لتحقيق الغرض الأخير إلى تسلم الحيوانات النافقة حيث تقطع ثم تلقى فى مصاهر كبيرة فتذيبها النار وتسيل فى مجار خاصة إلى أن تصب فوق سطح منبسط بالتل لتخلط بالتراب وتصير سمادا ، كذلك يلقى فى هذه المصاهر كل ما يطلب إعدامه من اللحوم الفاسدة التى يبعث بها مذبح العاصمة ، وأجور عمال المصنع ستة قروش يوميا فى المتوسط ، وبه عاملتان أجر الواحدة أربعة قروش .

خرجنا من المصنع فاستقبلنا الحارس وكان المرض بادیا على وجهه ، سألته عن حالته فقال : مريض ، قلت : من لرائحة طبعا ، فأطرق المسكين . ولاحظ الرجل أنى أدون ما يقول فأوجس خيفة وصاح يحاول استدراك الأمر ... " لأ يا افندى أنا مش عيان من الريحة دا انا صحتى بتيجى عليها وحياة النبى ..." واضطرب الرجل وتوسل إلى " لا أذكر ما يسىء عن المصنع ، مؤكدا أن الشركة "شايله عمالها على الكفوف" وأنه رب عائلة ولا يقوى على غضب الرؤساء .

ومرت بنا عربة من عربات الكسح ، وقد راعنى أن رأيت الحارس يبادر إلى نقل بعض ما بها و يودعه حوض الشرب جواره !! ، ولاحظ عتريس دهشتى فبادر إلى تبديدها إذ أخبرنى أن هذه هى الطريقة التى تنقل بها الشركة الماء لعمالها فى إجبل و إن كانت قد أعدت صنبورا لشرب عمال حظائر الخيل .

فى حظائر الخيل : وانتقلنا إلى بناء آخر يجاور مصاهر اللحم تأوى اليه خيول وعربات الكسح وفيه بعض العمال يرأسهم موظف أجنبى اسمه مسيو جيز .

استقبلنا الموظف استقبالا حسنا ، سألته عن حاله وكيف يتحمل هذا الجو الخانق فقال : إنه أمضى فى هذا المكان سنين طويلة دون أن يتأثر أو يتضرر من شىء . وتأملت عينى محدثى فرأيتهما تنطقان بما ينقض قوله ، فعيناه ككل عيون الذين يعملون بتلك الجهة ذابلة محمرة الأجفان متطايرة الأهداب . ولا عجب إذ يصيب القوم ما يصيبهم فإن ساعة واحدة قضيتها بينهم خلفت لى ألما فى عينى وضيقا فى صدرى لازمنى أياما طوالا .

ومضى المسيو جيز يشرح لى عمل الشركة فقال إنها تعد السماد المعروف بالكفرى وتورده إلى المزارعين الذين يحتاجون اليه ، وخاصة فى زراعة القمح والذرة ، وهى تدفع لمصلحة المذابح أجرا و إتاوة يسيرة عما تستخرجه من الأتربة . وقد أشار الرجل إلى أثر حرمان الشركة من الدماء التى كانت تحصل عليها من المذبح بعد أن أعطى التزام هذه الدماء إلى شركة الانجلو التى أشرنا إليها فى مستهل هذا المقال .

واسترسل مسيو جيز فى الحديث فتساءل عن سر اهتمامى بأمر العمال وأحوالهم قائلا : إنه يحسن بالحكومة قبل أن تنتقد القذارة وسوء النظام الصحى فى مناطق العمل أن تعنى بصحة الفلاح وأن تنقذه مما يحيق به من أخطار بإعداد المستشفيات و إمداده بالماء النقى وأن تعد له المسكن الصحى بدلا من أن تتركه يبيت مع حماره وجاموسته . قلت إن الحكومة بدأت تعمل لعلاج كل ما ذكرت ، واذا كان الفلاح لم يبلغ بعد المستوى الصحى اللائق فليس فى هذا ما يبرر إهمال أمر العمال والصناع وتركهم يشقون بما هم فيه ، فالعمال كالفلاحين عماد الثروة ودعائم الإنتاج .

على قمة التل : تركنا الحظائر وودعنا مسيو جيز خير وداع ، وانتقلنا إلى التل نسعى إلى عاليه لنشاهد العمال بمناطق العمل ، ومر بنا فى طريقنا بعض النسوة فاستفسرت من عتريس عن وجهتهن فقال إنهن ذاهبات إلى مصاهر اللحم ليشترين أجزاء من لحوم الخيل النافقة لاستعمالها فى " الشبشبة " وأعمال السحر .

وسرت وعتريس خلفى يجر ساقيه جرا حتى بلغنا مناطق استخراج الأتربة ، وكان العمال منهمكين فى عملهم . حيياهم فردوا التحية بأصوات خافتة وأنفاس محتبسة ، من فرط التعب . وعمد عتريس الى رابية عاليـة تشرف على الوادى الفسيح ومضى يتأمل الفضاء وماتكشف عنه وانطلق ، إذ أثارت الطبيعة شاعريته ، يحيى العمال شاديا ببعض المواليا والأزجال .

حالة عمال السماد : وعمـال السماد ، كبقية عمال الحى ، يعمل أكثرهم بما يسمى الطريحة ، فهم لا يتقاضون أجرا ثابتا و إنما يتوقف أجرهم على مقدار ما ينجزه كل منهم ، لذلك تراهم فى عملهم دائبين متهالكين ، وهم رغم ما يبذلون من جهد لا يكادون يحصلون طيلة يومهم من الصباح الباكر إلى الغروب على أكثر من ستة قروش .

وقد شكا الى العمال مر الشكوى من قلة الأجور وتساءلوا أين : علاوة الغلاء التى فرضتها الحكومة على الشركات ؟ وقال أحدهم إن لديه خمسة أولاد ، و إنه مع عمله الشاق لا يتناول غير وجبتين ، وكل ما يسعى إليه أن يتمكن من الحصول على " اللقمة والهدمة " .

أما حالة العمال الصحية فهى أسوأ ما يتصوره العقل ، فلقد أثرت فيهم الروائح الكريهة التى أفسدت الهواء وكذلك الأتربة التى تثار حول العمال أسوأ تأثير ، فأنت لا ترى إلا أشباحا تتحرك تحمل التراب بأذرع واهنة ووجوه مصفرة وعيون كاد الفساد يذهب ببريقها ، ولست أعدو الحق إذا قلت إن العمال قد بلغوا دركا أحط من درك السـائمة فصحتهم رخيصة وحياتهم لا قيمة لها ، واذا انهار جرف من التل على أحدهم فقتله حسب ذويه أن يتسلموا عائلهم جثة هامدة ليواروه فيما كان يعمل فيه طول حياته من تراب .

لسنا ننكر أن الحكومة قد بذلت وتبذل فى سبيل العمال الكثير، وأنها أصدرت القوانين المختلفة لرعاية العامل وضمان راحته وصحته ومستقبله، ولكن المسألة ليست مجرد إصدار شرائع وسن قوانين، فقد عرضت فى هذا المكان حياة كثير من طوائف العمال، وجلوت ما يحيق بهم من بؤس وما ينتظرهم ويتنظر ذويهم من مستقبل مظلم، نقول ليس الغرض سن قوانين يقتضى إعدادها سنين طويلة حتى إذا صدرت قنعنا بصدورها لنجيب السائل إذا سألنا عن عمالنا " العمال هنا بخير وها كم قوانين العمل التى صدرت لصالحهم " إنما الغرض من هذه القوانين تنفيذها ووضعها موضع الاعتبار وأخذ المقصرين من أصحاب العمل بالشدة حتى يعرفوا مكان الرجل الذى يخلق لهم الثراء ويدر لهم الخير فيطعموه كما يطعمهم ويسعدوه كما يعمل لإسعادهم .

فى حى أبى السعود : وعدت ورفيق ورائى يتعثر فى مشيته حتى بغنا منطقة المساكن، فاذا نحن فى حى كبير: بيوت حديثة فى شوارع منظمة يقوم هذا الحى الكبير وسط هذا الجحيم القاتل، فالتلال بما حوت من مدابغ ومصانع ومحارق تحيط به، وقمائن الجير وفواخير القلل تثير دخانها عليه، ولست أدرى كيف أذنت مصلحة التنظيم للناس بالبناء فى هذا المكان؟ إن الواجب ليقضى بوقف تجديد رخص لمنشآت الصناعية بعد أن زحفت المساكن نحو التل ووجهته، وأكبر الظن أن من الميسور إلزام الكثيرين من أصحاب المحلات الخطرة الانتقال إلى داخل التلال مادام تجديد الرخص رهن إشارة الحكومة .

والذى نراه فوق ذلك أن تقوم الحكومة بغرس الأشجار فى المنطقة التى تفصل المصانع عن المساكن وخاصة حول مسجد أبى السعود لتلطف الهواء الذى ملأه الفساد وتخفف بعض مافيه من سموم وأضرار .

وقبل أن أختتم هذا البحث أود أن أوجه نظر ولاة الأمور إلى ما سبق أن أشرت إليه فى مقال سابق من ضرورة التعجيل بإتمام مشروع إزالة التلال المحيطة بالقاهرة لأن هذا المشروع فضلا عما فيه من تجميل للمدينة وحفظ لصحة أهليها رابح منتج وبخاصة فى هذه الآونة التى ارتفع فيها سعر السيد وأصبح السماد الكفرى هاما ومطلوبا فى الزرعة .

نحن نرجو ألا نضيع الفرصة فى مباحثات لجان تنعقد وتنفض . فالمشروع قد كمل من قبل بحثا وتمحيصا، وليس أمامنا إلا العمل والتنفيذ ؟

محمد عبد الكريم